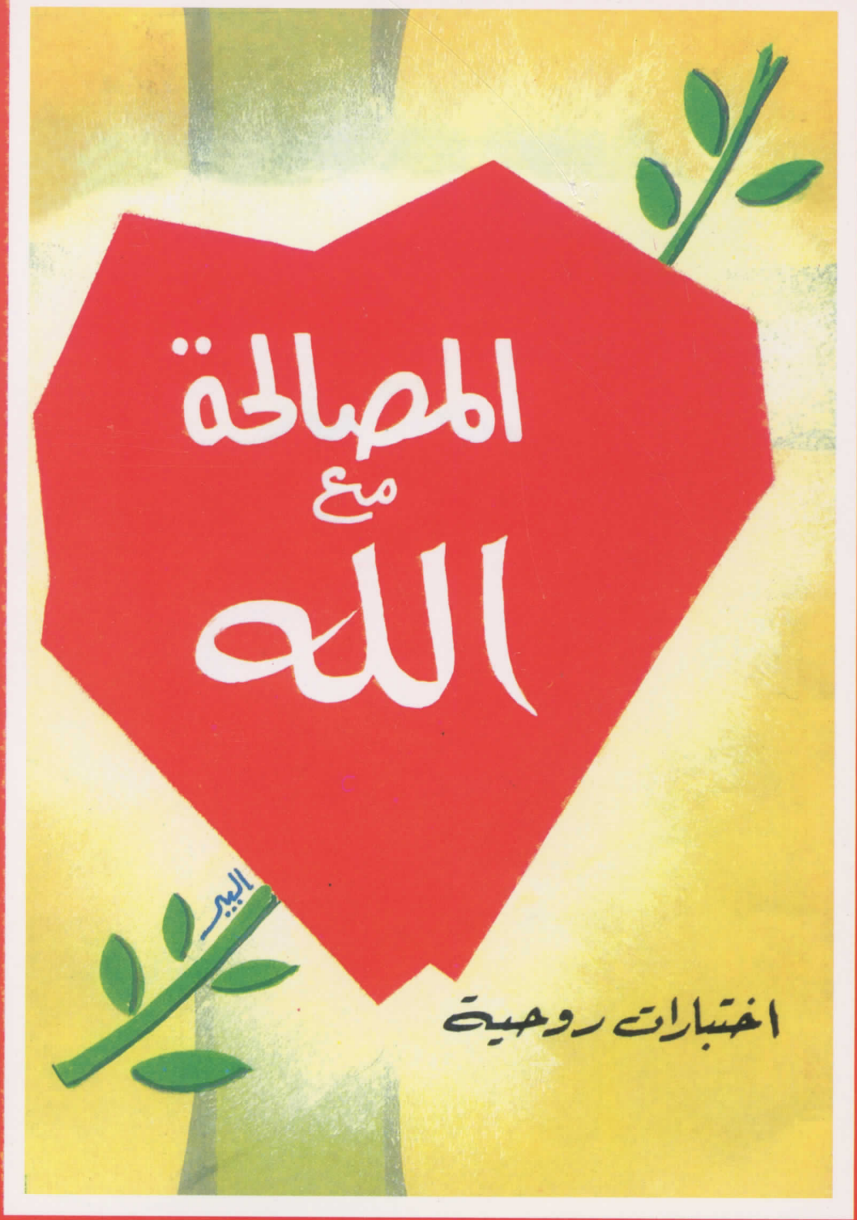

المصالحة
مع
الله
البير
اختبارات روحية

كتاب: المصالحة مع الله.
الطبعات اللاحقة: ١٩٩١، ٢٠٠٢، ٢٠٠٦
الطبعة الرابعة: ٢٠١٢
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٥٧٠ / ٩١
رقم الإيداع الدولي:ISBN977 -240-013-8
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون
ص.ب ٢٧٨٠ - القاهرة
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار مجلة مرقس
مُترجم عن كتاب: Parler de Dieu est Dangereux
للفيلسوفة الروسية المعاصرة: تاتيانا جوريتشيفا Tatiana Goritcheva
تقديم وتعليق الفيلسوف الفرنسي المعاصر والعالم الآبائي: أوليفييه كليمانـــت Olivier Clement

المحتويات

	صفحة
الأب ليونيـــد	٥
المحبة الأُولى بداية تعرُّفنا على الله	١١
سر المصالحة مع الله	٢٠
سياحة يوم في دير	٢٩
الأب جاكوب	٣٥

الأب ليونيد

• • •

عرفت — بعد أن وفدت إلى الغرب — أن أزمة الإيمان تعود في مجملها تقريباً إلى عدم توفر الآباء الروحيين الحقيقيين والكهنة الموهوبين الذين يمكنهم أن يكونوا أطباء روحانيين ومرشدين في طريق الخلاص يمارسون مسئولياتهم الرسمية الروحية وينطقون حكمهم بـ«نعم» أو بـ«لا» كوكلاء خُوِّلت لهم السلطة ليتكلموا باسم الرب ويعلنوا إرادته لكل مَنْ يلتجىء إليهم. بيد أن المضادة المذهلة هي اليوم في روسيا حيث نجد أن الكهنة الآن صاروا يحسون أكثر من ذي قبل أنهم مدعوون لحياة الكمال.

كم من كهنة اليوم في روسيا — ليس في القرى والأرياف فقط — بل أيضاً في المدن الكبيرة والأقاليم يتعهدون رعاياهم بكل اهتمام ومحبة فيحولون دون ارتدادهم نهائياً إلى عوائدهم الهمجية القديمة!!! إنهم محبوبون للغاية من شعبنا. فالمؤمنون منا يكرِّمون رعاتهم، وحتى غير المؤمنين كثيراً ما تسمعهم يتكلمون بكل احترام عن كاهن ما يعرفونه عن قرب. ثم إن المثقفين الداخلين للإيمان حديثاً الذين كانوا فيما مضى يعبدون الحرية تجدهم الآن يُسَلِّمون بالسلطان الروحي الذي للكهنة. وعديدون منهم يترددون على الأديرة الروسية ليقابلوا هناك الآباء الروحيين ليعترفوا عليهم ولكي يسمعوا منهم مشورة حكيمة (كلمة منفعة).

وقديماً، في القرن التاسع عشر، كان بعض من مشاهير الكُتَّاب مثل جوجول

Gogol ودوستويفسكي Dostoïevski ، وكذلك من الفلاسفة مثل كيريفسكي Kiréevski وليونتيف Léontiev ، يترددون على الآباء الروحيين الذين كان أشهرهم في ذلك الحين آباء دير أوبتينو Optino . وفي تلك الحقبة كانت الأغلبية الساحقة من طبقة المفكرين — مع بعض الإستثناءات والحالات الفردية — منبهرة ببعض الفلسفات الوضعية(١) والمادية. أما اليوم فنجد بالمقابل أن الاهتمام بالحياة الروحية قد ساد بين الأكثرية من المتعلمين. وآلاف عديدة من الشباب يترددون الآن على الآباء الروحيين المعروفين بالتقوى في أنحاء مختلفة من أرجاء روسيا و بالأكثر في الأديرة أو في الأرياف. وهؤلاء الآباء قد وهبهم الله القدرة على أن ينتشلوا الناس من وحل الخطيئة ويغسلوا النفوس إلى أن تعود إلى كمال حسن صورتها التي أبدعها الله على شبهه.

ليس كل المؤمنين الآن لهم آباء روحيون، بسبب قلة الكهنة، ولكن كل أرثوذكسي عندنا تحدوه الرغبة في أن يجد أباً روحياً (يسير به قُدُماً في طريق التوبة والحياة المسيحية السوية). أما نحن (أنا ورفقائي من طبقة المفكرين والأدباء المتحولين إلى الإيمان حديثاً) فقد وجدنا شيخاً فاضلاً هو الأب ليونيد. وكان هذا مفاجأة سارة لنا إذ كنا نبحث منذ أمد طويل عمَّن في مقدوره أن يتحملنا ويقود حياتنا الروحية، ولكن على أية حال فإن الكهنة بصفة عامة يبتهجون عندما يرون الشباب مقبلاً إلى الكنيسة.

إني لا أنسى تلك الأُمْسية التي وجدنا فيها أبانا الروحي. كانت الكنيسة مكتظة بالوافدين إلى درجة الخوف من أن يدوس بعضهم البعض. وكانت الشموع العديدة

---

(١) الفلسفة الوضعية هي النظرية التي تقول أن اللاهوت وما بعد الطبيعة هي أساليب عتيقة وغير كاملة للمعرفة الحقيقية، أما المعرفة اليقينية فهي تقوم أساساً على الظاهرة الطبيعية والعلم التجريبي.

التي ينيرها المصلون تتوهج كما لو كانت شعلة كبيرة واحدة... ولكن بالرغم من شدة الزحام والحر المصاحب له، فقد كانت الصلاة رائعة ومهيبة للغاية. وكان الكلُّ يحس بالفرح الغامر وبهذه النعمة الفائقة. كان الكاهن بثوبه الأبيض الناصع يتخذُ مكانه فيما بين الشعب متجهاً إلى ناحية الهيكل وكأنه ملاكٌ هبط على الأرض.

بدأ الرشم بالزيت المبارك: فتقدم الناس بتُؤَدة إلى الكاهن الذي كان يحمل في يده وعاءً صغيراً، فأخذ يدهن كل واحد على جبهته بالزيت راسماً عليه علامة الصليب وهو يردد بصوت خفيض هادىء: «باسم الآب والابن والروح القدس». وبعد أن يُقبِّل المؤمنون يده كان يحييهم بقوله لهم: «عيدٌ مُبارَكٌ».

وكانت ثيابه البرَّاقة تذكرنا بحادثة التجلي وبهاء طلعته الذي ينمُّ عن سمو روحه وجلاء محبته. لقد كان يعطينا انطباعاً أنه ليس من هذا العالم.

أما أنا وزملائي، فعندما تقدمنا — كل واحد بدوره — لأخذ البركة، قال لنا هذا الكاهن الوقور: «أود أن أراكم بعد الإنتهاء من خدمة الصلاة» — فهمنا آنئذٍ أنه سيقترح علينا أن يكون أباً روحياً لنا. فتعجبنا وقلنا فيما بيننا: وكيف عرف أننا ننوي أن نعترف وأننا في حاجة ماسة إلى مَنْ هو مثله؟ أم أنه يتصرف معنا هكذا من قبيل أن يشجعنا على الإعتراف؟ أم أنه أُرسل لنا خصيصاً من قِبَل السماء؟ ثم كيف دون أن يعرفنا يَعْرِضُ علينا أموراً خطيرة كهذه؟ وحتى لو أنه قد سمع عنَّا — كما عرفنا فيما بعد من أحد أعضاء كنيسته — فكيف يتسنى لهذا الكاهن الأُمِّي (في نظرنا كفلاسفة ومفكِّرين) أن يأخذ على عاتقه القيادة الروحية لأناس مثلنا متعددي الثقافات ومختلفي الطبائع والأمزجة؟ كل هذه الشكوك ساورتني في ثوانٍ قليلة، ولكني أحسست على الفور أني مدفوعة بقوة عجيبة، وردَدْت الجواب (على دعوته لنا بالإنتظار) بالموافقة وكذلك فعل رفقائي.

في هذه الأمسية ذاتها وفي أول حديث مع الأب ليونيد، فهمت ما هي سجايا الكاهن (كأب روحي). رأيته إنساناً يلتفت إلى محدّثه و يراعيه بكل كيانه... التقيت بإنسان يهتم بي أنا شخصياً دون النظر إلى الدور الذي أؤديه في الحياة أو المنصب الذي احتلّه (كَبُرَ أو صغر)، إن ما يهمُّه هو نفسي ذاتها المتوارية دائماً عن أعين الناس والتي كنت أظن أنه ما من أحد يَهمه أمرها. نحن قد تعودنا في مباحثاتنا العقلية أو الأدبية، أن ننتقد لا الكتب والأحداث فحسب بل أيضاً الناس. أما الأب ليونيد فلا يدين أحداً البتة، وذلك ليس من قبيل عدم المبالاة بالناس، بل إنه يتحدث عن الآخرين كما لو كانوا أولاده الأخصاء (يُكِنُّ لهم كل ودٍّ) ولكن دون ما تكلُّف أو تحيُّز، كما يفعل بعض الأصدقاء أو الأقرباء تجاه بعضهم.

لم يكن له نوعية الثقافة التي لنا، ومع هذا كان يحيط علماً تماماً بما في قصائد الشعراء منّا، وكان يعلّق عليها مبيِّناً بدقة مكان القوة ومكان الضعف فيها، وكان يسدي النصائح بتجنب بعض التطرفات التي تقلل من قيمتها وتُخلُّ بلياقتها. فسرعان ما فهمت أن هذا الأب الفاضل له أيضاً موهبة التمييز أي البصيرة الروحية. وقصارى القول، إنه كطبيب روحي ماهر كان يلقي نظرة شاملة للمرض و يلمُّ بكل نواحيه ليعالجه ككل. كان يعتني بنا بكل لطف وطول أناة، سائراً معنا الهُوَيْنا دون أن يكدّنا ودون أن يحسسنا بفداحة أمراضنا.

يوماً ما وفي الفترة التي كان فيها خروشوف رئيساً للإتحاد السوفيتي (١٩٥٨ — ١٩٦٤)، استُدعي الأب ليونيد لاستجوابه في مكتب رئاسة أمن الدولة وطُلب منه أن يخلع عنه ثوب الكهنوت كما فعل الكثيرون قبله... ثم قيل له: «ضع في بالك، إنه لا يوجد الآن في كنيستك إلا قِلّة من العجائز، فعندما يموتون ستصبح مهنتك هذه بلا عمل». أما الأب ليونيد فظل راسخاً على إيمانه طيلة تلك الفترة العصيبة، وها قد مرَّ على كنيسته عشرون سنة أخرى (١٩٦٤ — ١٩٨٤)، وكثيرون

من الشباب يترددون عليها، ومنهم رجال العلم والأدب والفلسفة. مَن كان يصدق هذا؟

الأب ليونيد يكرِّم أصحاب المواهب، و يطلب منهم (أي من أبنائه الذين كانوا شعراء قبل أن يدخلوا حظيرة الإيمان) أن يستمروا في إنتاجهم الفكري «لمجد الله» وحتى «لا نـدفن وزناتنا». إنه يحب جداً طليعة المفكر ين وكأنه وُجِدَ في هذه الحياة لكيما يحررنا تدريجياً من ثِقَل الإثم والباطل. فهو يقابل أناساً مصابين بالولع في طلب الأمور العالية، وآخرين غير ناضجين نفسياً معجبين بذواتهم يظنون في أنفسهم أنهم «عباقرة مجهولون» يبتغون أن يكونوا محبو بين وهم أنفسهم لا يعرفون أن يُحبُّوا أحداً. ولكن بقدر إقبال هؤلاء على الكنيسة، بقدر ما يكون نموهم الروحي، وانقشاع سحابة ظلمة الباطل والوهم التي تحيط بنفوسهم البهية التي أُبدعت على صورة الله.

مرات عديدة عندما يسمع الأب ليونيد أثناء الإعتراف أمراً هاماً نجده يحصر أفكاره ويركزها بعمق، ويظل صامتاً بعض هنيهات يقول بعدها: «يليق بي أن أصلي من أجل هذا الموضوع أو آخذ مشورة قرينتي (إن كان المعترف سيدة) وسأقول لكَ (أو لكِ) كل شيء (الإجابة) المرَّة القادمة». لم يكن متعجِّلاً تعديل سلوك أبنائه من المُقْبلين على الإيمان، حتى إن بعضاً منهم كانوا يقولون: «الأب ليونيد طيب أكثر من اللازم، و يُبرِّرُ لنا كل شيء». بَيْدَ أنه من الواضح أن الشباب التائبين حديثاً يحاولون أن يتغيروا عن كل حياتهم السابقة سر يعاً وعلى وجهٍ باتٍّ، لأنهم إذ يضطر بون من ثقل آثامهم وزلاتهم وجرائمهم القديمة، يتوقون إلى التطهير العاجل بالإماتات والتقشفات التي تفترضها توبة حقيقية جادة. وهذا حنين يشهد لإيمان حار، بدونه تتحول المسيحية إلى تصورات نظرية باردة لا جدوى فيها. ولكن موقفهم هذا لا يخلو من خطورة: فهم لا يرون في أنفسهم من قلة الصبر وعدم القدرة على المثابرة والإستمرار ية في الجهاد للنمو والتقدم التدريجي، الطموح، والمغالاة في التعلق

العاطفي.

الأب ليونيد ككاهن وأب روحي مختبر يعرف كل هذا ولكنه يدأب على العمل ببصيرة لا تعرف الكلل؛ ولكن دون أن يُشعر الآخرين بما يبذله من جهد لأجلهم أو بأخطائهم التي لا يحسون بها. ومع هذا بعد أن ينموا هم في الحياة الروحية رويداً رويداً يصبح هو معهم أكثر يقظة على سلوكهم ومنبهاً لهم على كل هفوة وكل همسة أو نظرة مخالفة للياقة.

إن كبرياءنا هي التي تدفعنا بالأكثر إلى المحاجاة والمقاومة. وعلى سبيل المثال سمع الأب ليونيد مرة أنني قضيت سهرة طويلة أتجادل فيها مع اثنين من المؤمنين كانا لا يذهبان إلى الكنيسة إلا نادراً فقال لي: «ضعي في بالك أنه ليس لكِ الحق في أن تعنّفي أحداً، ولكن فقط أن تعطي المشورة الصالحة. وإذا ابتعد هؤلاء الناس عن الكنيسة كُليّة فسيكون الذَنْب عليكِ أنتِ».

الروح القدس لا يكف عن أن يكملنا بصلاحه؛ فبعد كل حديث مع أبينا الروحي كنّا دائماً نتبدل للأفضل، فالشخصيات العنيفة المتزمتة منا تصبح رحبة القلب ووديعة! والمتراخون تحدوهم الهمة، والمرء يتعلم أكثر كيف يسلك بالتدقيق في كل أمر فترتقي أحاسيسه الروحية رغماً عنه.

كانت جهود الأب ليونيد كلها مركّزة في أن يجعل منا نحن النفوس المشوشة والمشوهة أيقونة في غاية الإتقان ليقدّمنا بشراً كاملين لله.

المحبـــة الأولى
بداية تعرُّفنا على الله

□□●□□

اليوم بينما كنت جالسة في المترو فاتحة كتابي الخاص بالصلوات لأتلو بعضاً منها... أخذ الشاب الذي كان جالساً بجانبي يتطلع باهتمام بالغ إلى هذا النص غير العادي من الصلاة التي كنت أرددها، وكان يقرأه معي. أما الشابان اللذان كانا في المقعد المقابل فبعد أن تطلعا إلى ما كان مكتوباً على الغلاف: «كتاب الصلوات الأرثوذكسية»، انذهلا وأبْدَيَا تأثُّراً واضحاً، وما أن نزلت حتى أسرعا إلى اللحاق بي وسألاني: «من أين يمكننا أن نحصل على مثل هذا من فضلك، أيًّا كان الثمن؟». وماذا كان يمكنني أن أقول لهما أنا الذي وجدته بعد أن أخذت أبحث عنه ما يقرب من عام؟ لأن هذا الكتاب من أندر الكتب عندنا، شأنه شأن الكتاب المقدس.

أما الجوع الروحي في روسيا... بما نعلِّله؟ إنه ليس رد فعل للإلحاد الرسمي، ولا هو محاولة للهروب والاستغراق في عالم آخر؛ وليس هو أيضاً محاولة للبحث عن معنى الحياة — فشل هذا البحث يمكن أن يكون مجرد تفكير نظري بحت، ولا هو سأم من التفكُّر في الفوضى الاجتماعية وعدم الاستقرار واستتباب الأمن الذي ساد في كل مكان، ولا هو خيبة أمل بسبب فشل الفلسفات العلمانية في تحقيق ما تصبو إليه من مثاليات. ما يجري حالياً في روسيا هو حَدَثٌ غير متوقَّع أبداً ولم يسبق له مثيل قط، إنه أعظم وأجلّ الأمور التي حدثت في بلادنا حتى الآن على الإطلاق.

فمن أين كان لنا (أفراداً وجماعات) هذا الاهتداء السريع إلى الله. فما لم يعرف أن يعمله أفضل المبشرين في أوقات السلام قادتنا إليه أمور غاية في البساطة. فآية واحدة مقتبسة من الإنجيل لغرض سيىء تَرِد في كتاب دعاية ضد الدين يقرأها أحدنا لأول مرة، كفيلة بأن تُحْدِث في حياته تغييراً شاملاً وتقوده إلى حياة مسيحية كاملة.

الاهتداء إلى الله أعادني إلى الطفولة البريئة. قبلاً كنت عائشة — كالكثيرين — مولعةً باقتناء شتى العلوم ومعرفة تأليف الكتب، واتخاذ الأصدقاء. كنت دائماً خائفة من فقدان الوقت، الذي ما كان يتوقف عن الإسراع في دورته السريعة بطريقة جنونية، كقطار يسير بسرعة تخطف البصر فلا يمكننا قط أن نرى من وراء زجاج نوافذه لا منظراً بريّاً ولا قروياً. ولا يمكن للوعي أن يحتفظ بأي انطباع واضح.

كانت رؤيتي للعالم — في الخامسة والعشرين — كتلك التي لامرأة طاعنة في السن. كان عندي الإحساس أنني اختبرت كل شيء، وعرفت كل شيء. من ثَمَّ بدأ التحوُّل الكياني في حياتي؛ فقد بان لي بكل بوضوح أن الله قد مسَّ ليس فقط روحي؛ بل ونفسي وقلبي أيضاً؛ بل وكل قوى إدراكي. وإني أحسُّ الآن وكأني عُدْتُ إلى أطيب أوقات طفولتي، فقد تنقَّتْ نفسي وتحررت من أسر الشر، وأضحت جلية لي وللعيان، ظاهرها يعبِّر عن باطنها تماماً دون ما إخفاءٍ أو خوفٍ أو رياءٍ.

لقد صارت لي نظرة جديدة ومباشرة للعالم، إن العالم يؤلمني و يُفْرحني، هذا أمرٌ مُسْتَغْرَب، ولكني لا أعود أتذكر حتى مجرد ردود الفعل التي للبالغين، والتي كانت لي منذ بضع شهور مضت. وكأن نفسي قد تخلَّصت من قوقعتها، وكأن كل طرق التحصُّن التي كانت تساعدني على إخفاء حياتي الداخلية عن الآخرين قد وَلَّت ولم تَعُدْ ومعها كل ما كان يُغلِّف نفسي من سلبيات... لقد انفكت عني كل القيود، وأصبحتُ حرَّةً طليقة، أَنْعَم بالفرح، واستنشق نسيم الحرية الحقيقية بلا أدنى عائق.

قالت لي راهبة، هي الأم أونوفريا أنها في اليوم التالي لتقديم نذورها الرهبانية، استيقظت فوجدت نفسها تشكُّ، فهي التي كان لها قبلاً إيمان حار راسخ، أضحت لا تحس البتة بوجود الحضرة الإلهية. هذه الحالة من التخلّي والهجران طالت إلى عدة أعوام. فالله كان غائباً (بالنسبة لها) كغياب النور من مغارة بعيدة منحوتة في عمق الصخر ومعتمة. من ثَمَّ فهمت الأم أونوفريا، أن الله يتطلب منها حباً حُرًّا تماماً بلا سند مادي أو محسوس. إن الأمر لا يحتاج شيئاً البتة أمام هذا الإحساس بالفراغ والتخلية الإلهية.

شرح لها أبٌ روحي مختبر أن الصفوة المختارة من أبناء الله، هم وحدهم الذين يُسلَّمون لمثل هذا الإختبار. فالله يرفعهم إلى ذاته الخاصة. لأنه لا يريدهم أن يكونوا عبيده أو حتى أولاده؛ بل أصدقاءه (أحباءه). آلام هذه التخلية من الله، ذاقها الرب بنفسه على الجلجثة. وهذه التخلية تختلف عمَّا لاقاه الشهداء. هؤلاء يشهدون بأنهم كانوا على وعي تام بالله، وكانوا ينعمون برؤيته معهم. شهداء المسيح هم قوم فَرِحُون. فقد صرحت نيولا سادونايتيه **Nieula Sadounaité** خلال محاكمتها: «إنه أسعد يوم في حياتي! ها أنا سأتألم من أجل المسيح». الواقع السوفيتي أبعد ما يكون عن الإلحاد السلبي فاعتناق هذا النوع من الإلحاد، هو أن الحياة يحكمها القدر المجهول اللاإنساني الطاغي.

عندما استطلعت آراء الطلبة في كلية الطب لم يجبني أحدهم أنه يؤمن بالله؛ ولكن أكثرهم كان يؤمن بالقَدَر. وإني أعتقد أنه لا يوجد على الأرض أُناس يعتقدون بالتفاؤل والتشاؤم مثل هؤلاء: بعضهم يتفاءلون حتى بأرقام تذاكر الترام إلى الحدّ الذي فيه قد يبتلعون التذاكر التي تحمل أرقاماً تجلب الحظ — في نظرهم — وآخرون يهتمون بالتنجيم وقراءة الطالع... وهذا واضح، فقد تغلَّف هذا المجتمع بغلاف من الخوف يمنعه من الإيمان بالقوى الكامنة فيه، وفي إمكانية تغيير حياته إلى الأفضل.

الانغلاق الفكري الداخلي والخارجي التام، والعبودية والاضطهاد وضياع معنى الحياة؛ دفعت الناس إلى التطرُّف واللجوء إلى السحر. إنهم يريدون أن يسخِّروا الله لخدمة أغراضهم، فانقادوا بذلك إلى أن يُصبحوا عبيداً أرقَّاء لأفكارهم. كثيرون من أصدقائي كانوا يعيشون في خوف من القدر فحررتهم المسيحية، واستُبدلت فكرة القدر عندهم بالصليب.

يقول القديس بولس الرسول: «المناداة بالصليب عند الذين يسيرون في طريق الهلاك جهالة، أما عندنا نحن المدعوين للخلاص فهي قوة الله» (١كو١: ١٨ — الترجمة حسب النص المترجم). «القَدَر» حبس الإنسان ورهنه تحت دين أبدي. الإنسان كان يخاف أن يفرح، أما الصليب فقد عتق الإنسان من هذا المصير وردَّ له حريته كاملة. «القَدَر» يحوِّل الإنسان إلى شيء ضمن أشياء أخرى، تراب يذرِّيه الريح حيثما يشاء. أما الصليب فهو شهادة على حبِّ الله اللانهائي لنا. إذ يظهر أن الله يمكن أن يعود فيبدِّل قضاء الهلاك بالحياة، كما حدث عندما أشفق الله على نينوى؛ هكذا يمكن أن يترأف على كل واحد منَّا، لأن الصلاة تستطيع كل شيءٍ «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات». وأظن أنه لا يُسمع صدى قول الرب هذا بأكثر مما يُسمع في روسيا الحالية. التوبة لازمة بالأكثر في الحرب ضد الكبرياء أُم الرذائل.

ومن المعروف أن طبقة المثقفين هم أكثر طبقات المجتمع اعتزازاً بأنفسهم، وبالتالي ميلاً لهذه الرذيلة. فهم قد استعبدوا أنفسهم تحت فكرة تفوُّقهم وامتيازهم عن الآخرين «عسيرٌ على غني أن يدخل ملكوت السموات». وطبقة المثقفين تمتلك العديد من مصادر الغِنى.

كيف يُتاح لهم أن يتخلوا عن مواهبهم ومعارفهم وطموحهم؟ فقد صار عسيراً عليهم أن يسيروا في طريق الصليب الضيق. بَيْدَ أن رغماً عن كل هذا، فإن طبقة

المثقفين الروسية قد تخلّت عن أفكارها واعتقاداتها السابقة. وها هي الآن تتسابق في الذهاب إلى الكنيسة بكل صدق وجديّة.

إن الأمر الذي يدعو إلى الدهشة في روسيا الحالية في سائر الأوساط، هو الإحساس الغامر بضرورة التوبة والرجوع إلى الله بصورة قوية تنذر بانهيار في البنية الأساسية للإلحاد. فكثيرون ممّن أصبحوا مسيحيين ليس فقط تخلّوا عن وظيفتهم الرسمية ومهنتهم؛ بل وأيضاً ولّوا ظهورهم للثقافة والكتب وكل مغريات العالم المادي.

وهاكم أمثلة لبعضٍ من هؤلاء:

فلاديمير ي.: الذي كان من علماء المنطق وموضع فخر جامعة لينينجراد، فقد أعلن أنه لم يَعُدْ يستطيع أن يكرس نفسه للعلم «بسبب ظروفه الصحية»، فاستقال من مهامه واشتغل بمهنة متواضعة كعامل في مِصْعَد. إن ما يقرب من نصف جماعتنا الثقافية اشتغلت كعمال مصاعد. ولكنه لم ينضم، لا إلى جماعتنا، ولا إلى أي جماعة أو مجموعة أخرى. وقد وهب مكتبته لبعض الأصدقاء، وأفرغ حجرته من كل ما لا علاقة له بالدين، ولم يحتفظ إلاّ بالأيقونات. في الصباح، وفي المساء، وفي كل ساعة تفتح فيها الكنيسة أبوابها، كان هناك. أما بقية الوقت، فكان يعتزل في مكان ما لتلاوة «صلاة يسوع»!

ڤيكتور م.: شاب لامع إختفى فجأة، ويُحكى أنه ذهب مع امرأته ليعيش في قرية نائية، وهناك عمل كحارس للكنيسة. وهو يفزع عندما كان يتذكر ماضيه في الإلحاد.

المسيحية دون تطرف تصبح حياة عملية بسيطة، أما التطرف فقد يحوّلها إلى كراهية العالم وإلى المانيَّة (بِدعة ماني في القرن الثالث، وكانت تعتقد أن العالم

المادي هو عالم الشر). قد تُصادف بعض المؤمنين الذين قد يخافون الشيطان أكثر مما يحبون الله، وقد تجدهم في عامة الشعب، كما في حديثي الإيمان من المتعلمين.

وفي هذا المقام يليق أن يُقال: إن الآباء الروحيين والشيوخ المتمكّنين نادراً ما يوافقون على هذه التحولات الفجائية، وهذه القطيعة مع العالم. وينادون بعدم ترك العالم؛ بل تغيير هيئته دون ترك المكان أو الأعمال الخارجية بقدر المستطاع؛ بل تسخير الكل لخدمة الله.

اليوم كانت أول مرة يوجّه فيها أبي الروحي إليَّ الكلام بشدة أثناء الاعتراف ناهياً إياي عن استخدام كلمة «أنا». الأيام القليلة التي أمضيتها في دير قد غيَّرت — على غير توقُّع — كياني. ولكني أعتقد أن إنائي الروحي لم يكن بعد مُهيَّأ لاستقبال هذا الكمّ من النعمة. في عودتي إلى المدينة صرت كجمرة مُلْهِبة أحمل طاقة روحية لم أكن أعتادها. فأمطرت أصدقائي ومعارفي بوابل من أحاديث شتى عن الحياة في الدير: كم تمتعت بالصلاة وتلاوة المزامير والصوم والسهر الدائم. وقد بدا لي أن كثيرين من محبي التأمل أظهروا عندئذٍ اشتياقهم الشديد للذهاب فوراً إلى الدير بحثاً عن ملء الروح القدس. باستثناء أبي الروحي الذي عاهدته طيب القلب فهو وحده الذي سلك معي بطريقة مغايرة: فرأى أن انفعالي الشديد هذا كان يخفي كبرياءً، فنهرني عن استخدام كلمة «أنا».

في حينه لم أفهم جُلَّ مقصده، ولكن الله رتب لي مقابلة سيدات تشع وجوههن بالبهاء الحقيقي والوداعة وقلة الكلام. كم من وجوه تقابلت معها في الدير دون مبالغة قد تحررت من الجسديات، فصارت شبه الأيقونات الجميلة؛ فيهم قد احترق كل ما هو شهواني وفاني ومادي في لهيب الصلوات الحارة المُطهِّرة!!! إعتادت سيدة أن تحضر إلى كنيستنا وتجلس في ركن منعزل وحدها، لا تتحدث إلى إنسان. وكانت

دائماً هي أول الحاضرين وآخر المنصرفين. عيناها تُشعُّ من وسط وجهها الشاحب والمرتسم بفرح هادىء، ببريق حقيقي خفي يدفعني إلى تذكُّر مَثَل «الكنز المُخفى في الحقل» الذي قاله المسيح، والذي قال إن من أجله يُعطَى كل شيء.

منذ زمان ولي اشتياق للحديث معها. فاندفعت للإقتراب منها وبادرتها قائلة: «أتَبْقين طويلاً هكذا كل يوم؟» فأجابتني بابتسامة مُضيئة: «إنني لا أعرف ما أفعله» — كان هذا درساً لي —: «دَعْكِ من كثرة الحركة والفضول وانْسِي نفسك».

من فترة مضت طُلِبَ مني أن أنظم ندوة عن الوجودية في مدرسة للموسيقى. ولأول مرة لم أمارس أي ضغط على السامعين بل بقيت محايدة. كنت أصلي في فترات الإستراحة لأنقل لهم الإيحاء بالصمت الداخلي. ولم يكن السامعون وعددهم أربعون شخصاً ذوي معرفة فلسفية؛ إذ كانوا مهندسين، وعلماء طبيعة، ومهنيين، وما بين العشرين والخمسين من العمر. وبالطبع فقد تحول مظهري إلى شهادة تتجاوز الوجودية إلى المسيحية، وأتى بنتيجة غير متوقعة بل مُبْهِرَة. فتحولت الندوة إلى شرارة أصابت كوماً من الهشيم الجاف. فتذكرت مرة أخرى قول الرب يسوع: «قد آن أوان الحصاد...». فلم يتركوني أمضي إلاَّ مع بزوغ الشمس. لا أحد يريد أن يمضي، والكل يسأل أسئلة حيوية. كانوا أمامي كأُناس يهلكون عطشاً. فاضطُررتُ أن أتحدث في كل الأمور: لماذا يصبح الاستشهاد من أجل المسيح فرحاً وضرورة؟ ما هو الزواج المسيحي؟ حتى خطية الإنتحار اضطررت للكلام عنها. وخجلت أن يكون هذا الكمُّ من الناس يهلك حولنا دون أن يُتاح لهم أن يلمسوا إنجيلاً. وفي الدقائق الأخيرة أجبت على السؤال الآتي: «كيف وأين يمكن أن ننال المعمودية»؟ وبالأمس نالت ثلاث سيدات من بين مَن حضروا الندوة العماد. وإحداهن تشغل منصباً هاماً. وبالرغم أنني نبَّهتها أن هذا سيكون على حساب منصبها إلاَّ أنها ابتسمت بفرح

وأومأت باستعدادها للتنازل.

وسيدة أخرى من أوكرانيا جاءت في زيارة، وكانت تتعجب من وجود مثل هؤلاء الشبيبة في كنيستنا. وازداد عجبها عندما علمت أن أهلنا كلهم من الملحدين. فأخذت تبكي، لأن أولادها كانوا من غير المؤمنين، وطلبت مني الصلاة من أجلهم قائلة: «يكفي منكم أنّة واحدة في الصلاة حتى تُجاب طلبتكم».

بما أنني آمنت بالله بطريقة فورية تلقائية فلم يكن ممكناً أن أتصور أنه توجد كلمات أو حركات أو لغة يمكن بها التحدث معه. لأنه بالرغم من أنني عرفت السيد الرب من خلال الصلاة الموهوبة لي منه، فهل نستطيع أن نجد كلمات شبيهة بهذه الصلاة تقدر أن تؤثّر في كل النفوس وتصلح لجيلنا كله، وتجيب عل كل أسئلته؟ المسيح استطاع أن يقتحم أعماق الإنسان المعاصر، ويتجاوز ليس فقط خبرات إنسان خاطىء؛ بل أيضاً تأثير صعوبات الحياة المدنية المعاصرة، والتاريخ، والتربية، والسياسة، وشقاء الحياة، والانهيار الخلقي، والإباحية، وتأثير الثورات، وكل ما خلفته البشرية خلال أعوامها الألفين!!! يجب أن نعود إلى الوصايا المضيئة جداً والسهلة المدخل إلى السعادة الحقيقية: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»!

ما يجري الآن في روسيا كان يثير الدهشة سابقاً: الإنجيل والآباء القديسون (سِيَرهم وأقوالهم)، صاروا مثلنا الأعلى، وأضْحَوا القمة في ثقافتنا الحديثة، والأكثر نفاذاً إلى النفوس ولا غِنى عنها للكل.

أتى الوقت في روسيا الحديثة لكي تنفتح حقيقة المسيح على مصراعيها بكل قوة: المسيح هو الحياة. هذه هي رؤية الناس المعاصرين للعالم الحاضر: «نخرج إلى الشوارع. كل شيء على ما يرام: الشمس تشرق، العصافير تغرِّد. أما الحياة فمعدومة». في الأديرة كان أول ما قابلته في الناس أنهم هم الأكثر سعادة، والأكثر

سروراً، والأكثر فرحاً.

الإلحاد يتلاشى كالموت أمام الحياة. أتذكّر الآن كاهناً قروياً بسيطاً أجْرَى الشفاء للكثيرين بصلاته. حُكي أن أحد المرضى بالسرطان جاءه فابتدره الأب باسيلي: «أتؤمن بالله؟». فأجاب المريض بالنفي. فما كان من الأب باسيلي إلاّ أن سأله ببساطة: «أتحب أن تحيا»؟ فسارع المريض بالإيجاب فشفاه الأب باسيلي، لأن كل رغبة في الحياة لا بد نابعة من الروح القدس «المعطي الحياة والمالىء الكل».

قد افتَقَدَنا ذاك الذي يخلق الكل من جديد، وافتتح لنا طريقاً للرجاء غير متوقَّع أبداً للصفح والفداء. لقد حررتنا المسيحية من ماضينا الثقيل؛ بل استطاعت أن تمحو كل آثاره فلم يَعُدْ لها وجود بعد.

وهكذا غلبت الكنيسة طبيعتنا العاتية التي لم تُقهر،
وسادت أخيراً على حياتنا.

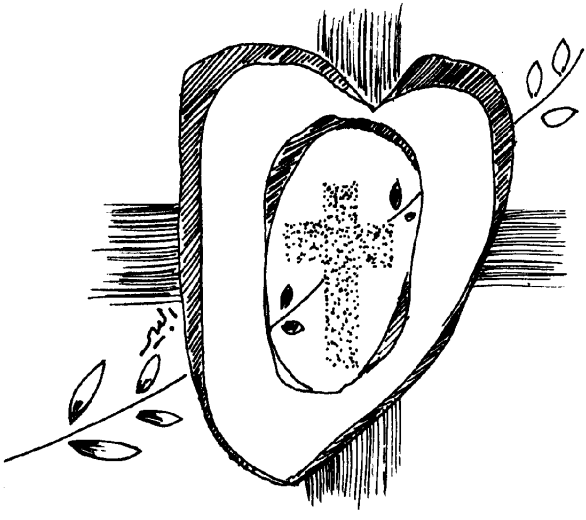

سر المصالحة مع الله

□*□*□

نحن الآن في كنيسة فسيحة الأرجاء باردة، ولكنها تبعث على الرهبة بعظمتها الباهرة... إنها الساعة السادسة صباحاً، والقدّاس الإلهي على وشك أن يبدأ. ويُرى على شمال المذبح الجانبي حشد كبير من الزائرين الغرباء؛ بينهم كثرة من النساء، يرتدين الثياب البسيطة التي تنمُّ عن حالتهن الفقيرة...؛ بعضٌ منهن جاء من أماكن بعيدة جداً، من أوكرانيا، أو من كازاخستان، أو من أقاصي سيبيريا. هؤلاء النسوة أعددن أنفسهن لهذه الرحلة عدة سنوات لكي يزُرْنَ الدير وكنيسته هذه. لقد اقتصدن في نفقات بيوتهن الضرورية لكي يوفرن النقود اللازمة لسفرهنَّ الطويل؛ وطالما صلّين وانتظَرْن حتى تسمح لهنَّ ظروف حياتهن الشاقة والمليئة بالانشغالات الضرورية أن يحققن أعظم أُمنية وأحرَّ رغبة لديهن، يتوقون إليها من أعماق قلبهن: وهي زيارة الدير، حيث المواضع المقدسة، وحيث هناك يتقابلن مع الآباء الشيوخ الروحيين المعروفين بقوة البصيرة الروحانية. وينعمن ببركة بقايا أجساد القديسين التي كثيراً ما حدثت منها لهن المعجزات الخارقة؛ بسبب إيمانهن بقداسة أصحابها، وقوة الدالة التي لهم عند الله، وبالتالي سرعة استجابة صلاتهم عنهن.

ومن جهة أخرى — وهذا هو الأمر الجوهري في هدف هؤلاء الزوار من سياحتهم الطويلة — أنهم منذ بضع سنوات لم يتيسر لهم الاعتراف ولم يتناولوا من الأسرار المقدسة: ويعتبر تحقيق هذا الأمر جدَّ شاقٍ عندنا، لأن الكنائس الباقية بعد قيام

الثورة الشيوعية قليلة؛ بل وأقل منها عدد الكهنة. لذا جاء هؤلاء السواح من أنحاء بعيدة لنوال ما حُرِمُوا منه في بلادهم وقراهم المترامية الأطراف.

من هذا الحشد الواقف جانباً في الكنيسة، يوجد أيضاً رجال أغراب يبدو عليهم أنهم من عامة الشعب. ومَن يتطلَّع إلى محيَّاهم يتهيأ له أنه أمام لوحة بورتريه (رَسْم وجه) من القرن التاسع عشر، فوجوههم تختلف سيماؤها عن هذه التي لسكان المدينة، ولا نلاقي مثيلاتها إلاَّ في الأرياف الروسية القصيَّة.

هؤلاء القوم الذين يُرون في أسمالٍ بالية، واقفين أمام الكاهن في سكون تام، منحنين برأسهم في انسحاق التوبة استعداداً للإعتراف؛ هم الذين جعلوني لأول مرة في حياتي أنطق بجدية ووقار هذه الكلمة المنبوذة من أصحاب الذهنيات الأرستقراطية: «عامة الشعب». في الكنيسة فقط رأيت ما معنى «العامَّة»، وما قيمتهم عند الله. وتجلَّى لي بكل وضوح أنني لست منفردة وحدي؛ بل إنني نفسي كنت من هذا «الشعب العامي»، لأن هؤلاء الناس غير المعروفين قد أحسست في قرارة نفسي أنهم كانوا أكثر قرابة لي من أيِّ مَن كان على الأرض.

كان الأب شيراموچين يتكلم عن الخطيئة بتعبيرات عنيفة، وكان هؤلاء الناس البسطاء الملتئمون للإعتراف يبكون في صمت. إلاَّ أن رجلاً واحداً لم يقدر أن يقمع نحيبه الذي كان يُدَوِّي بقوة في الكنيسة كلِّها. هذا السائح كان مدَّثراً بثياب بالية، ولم يكن له ذراع يمنى، وحتى ذراعه اليسرى كانت مقطوعة حتى إلى أعلى المرفق؛ فكان يرشم الصليب بطريقته الخاصة، مراراً وتكراراً.

كان هذا هو أول اعترافٍ لي بعد اهتدائي إلى الإيمان مباشرة بنعمة الله. لم يكن لي أي معرفة سابقة، لا بالمسيحية ولا بالكنيسة، فمَن كان يعلِّمني إياها حينذاك؟ فأنا وأصدقائي جميعاً كنَّا حديثي العهد معاً في قبول الإيمان. فكنا نتعلم بالتدريج من

جدّاتنا اللاتى كُنَّ يحافظن على التقوى الأرثوذكسية بغيرة حارة. وبالرغم من أننا كنّا ما زلنا جاهلين بكل شيء في الدين، ولكن كان لنا في ذلك الحين ما قد يكون أكثر قيمة من المعارف وهو: ثقة لا حدَّ لها نحو الكنيسة، وإيمان بكل كلمة من أقوالها، واحترام كامل لكل حركاتها وسكناتها وموجباتها.

في الأمس القريب كنّا ما زلنا لا نخضع لأية سلطة ولا نقيم وزناً لأي نظام رسمي. أما اليوم فنحن نتقبل هذا الخلاص المعجزي الآتى لنا عَبْر كنيستنا، كحق مطلق، لا جدال فيه، في تفصيله كما في عمومه. الله قد هدانا إليه ومَنَحَنا نعمة الطفولة: «إن لم تصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السموات».

كنت أعرف أنه ينبغي عليَّ أن أعترف، ثم بعد ذلك يمكنني أن أتناول من القربان المقدّس. وكنت أعلم أن الإعتراف والتناول هما من الأسرار المقدسة التي من شأنها أن تُصالحنا مع الله وتوحّدنا تماماً وحقيقة — سواء بالجسد أو بالروح — مع الرب.

كنت قد تعمدت منذ طفولتي المبكّرة عن طريق والديَّ الملحدين، سواء كان ذلك رغبةً منهم في احترام التقليد، أو أن أحداً أقنعهما بذلك، لا أدري السبب في ذلك جيداً على وجه التحديد، وإنما ما أعرفه الآن — وقد صرت في السادسة والعشرين من عمري — هو أنه عليَّ أن أجدد نعمة المعمودية فيَّ بالإعتراف والتوبة.

كنت على يقين من أن الكاهن الذي سأعترف أمامه — وهو الأب شيراموچين — سيطرح عليَّ أسئلة من نفسه قبل أن أتكلم، وسيقود الإعتراف بطريقته هو. ولكن عندما قرأت الكتيب الصغير الذي يدور حول الاستعداد للإعتراف، اكتشفت أنني تعديت كل وصايا العهد القديم والعهد الجديد؛ بل وحتى بدون هذه القراءة، كنت أرى بوضوح تام أن كلَّ حياتى كانت مفعمة بعديد من

العيوب والجرائم وفساد الأخلاق. وقد ظلّت هذه كلها — وحتى بعد اهتدائي إلى الإيمان — تلاحقني وتضيّق عليَّ الخناق بتصوراتها العنيفة، وتُثقّل على نفسي بشدة.

كيف لم أقدر أن أرى من قبل إلى أيِّ حدٍّ كانت الخطيئة شنيعة، وسمجة، وحمقاء، ومضجرة، وجدباء لا طائل منها! ولكن منذ طفولتي كانت هناك عُصَابات على عينيَّ! كانت عندي رغبة مُلحَّة في الإعتراف، لأنني كنت أحسُّ بكل كياني أن ذلك سيجلب لي الحرية: فبفضل الإعتراف بدأ إنساني الجديد — الذي اكتشفته فيَّ حديثاً — ينتصر تماماً على العتيق ويطرده. فمنذ ساعة اهتدائي بدأت أعي داخلياً أن نفسي تعافت وتجددت، إلاَّ أن قشور الإثم الوعرة التي لصقت بجلدي لم تسقط عني بعد. من أجل هذا سعيت في طلب الإعتراف ليكون لي بمثابة غسيل مُطهِّر، متذكرة كلام المزمور العجيب: «اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيتي طهرني... طهِّرني بالزوفا فأطهر. اغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج».

عندما جاء دوري، تقدَّمتُ وقبَّلتُ الإنجيل والصليب. ولأنني كنت — بلا شك — مرتعبة ومرتبكة لم أجسر على أن أُصرِّح أن هذا هو أول اعترافٍ لي: فبادرني الأب شيراموچين بهذه الأسئلة:

— أي الأعياد فاتتك؟

— كلُّها على وجه الإطلاق.

حينئذٍ فهم أن هذه التي أمامه تائبة حديثة؛ وإذ يعرف آباء الإعتراف أن كثيرين من عيِّنتي مُقْبِلون في هذه الأيام الأخيرة، على الإيمان والتوبة، لذا رأوا ببصيرتهم الروحية أن يتخذوا منهم موقفاً خاصاً جداً حتى يشجعوهم على التقرُّب من الكنيسة بلا عوائق.

ثم بعد ذلك عاود السؤال عن: ما هي أشنع وأفدح خطاياي؟ وكان عليَّ أن

أرفع النقاب عن كل سيرة حياتي... وبعد أن ذكرت كبريات خطاياي وأفدحها، كان من الصعوبة عليَّ بمكان أن أسترسل في الكلام عن آثامي الكثيرة دونما خزيٍ؛ لذا عاقني الخجل عن أن أتكلم أكثر وكتمتني دموعي. في آخر المطاف طلبت أنا نفسي قائلة: «أريد أن أكابد شيئاً مقابل كل هذه الخطايا الكثيرة التي ارتكبتها، أود أن أتنقَّى تماماً من كل آثار عيوبي حتى ولو كان القليل هو المتبقِّي. اسمح واعطني قوانين توبة، أرجوك».

أما الأب شيراموچين فكان يصغي لي بانتباه ودون أن يقاطعني تقريباً في الكلام. ثم قال لي بعد تنهدٍ عميق: «نعم يا ابنتي، هذه خطايا كبيرة فعلاً». ولكن شكراً لله، لم يفرض عليَّ شيئاً إلاَّ تدريباً كان يبدو لي في غاية السهولة: فكان عليَّ أن أردد خمس مرات في اليوم ولبضع سنين: «سلام لكِ يا مريم الرب معك»، ولكن بشوق حار عميق. كان هذا التدريب سنداً كبيراً لي طيلة السنوات اللاحقة.

كانت خطايانا — وكذا سيرة أصحابي المهتدين حديثاً شبيهة بالتي لي — تبدو لنا جسيمة، لذا كان من الصعب علينا أن نصدق أن مجرد إشارة بسيطة من الكاهن لرشم الصليب ولإعطاء الحل والبركة، كانت كافية بأن تجعلها تضمحل وتتلاشى منَّا بتصوراتها البشعة. ولكن مع هذا كان لنا خبرة سابقة بالأعجوبة الفائقة لكل منطق: فكلٌّ منا كان آتياً من العدم، من وجود مَيئوس منه، تعدَّى كل حدود المعقول، وأوشك على فقدان الأمل من جهة الرجوع إلى «بيت الآب»، أعني به الكنيسة التي صار إقبالنا عليها بمثابة «العودة إلى الفردوس المفقود». كنا نعرف أن كل شيء ممكن لدى الله، وهذا ساعدنا على أن نؤمن أن الإعتراف قد محا الخطية.

كان الإعتراف الأول عند البعض من أصدقائي يتخذ دوراً يكاد أن يكون طريفاً. فقد حدث مع فتاة شابة رسَّامة وممثلة اسمها لاريسَّا **Larissa** عندما كانت

تعترف لأول مرة على راهب كاهن عنيف جداً، وكان صف طويل من الناس منتظراً دوره في الإعتراف، وكان حشد من السيدات المُسنَّات يملأن الكنيسة. ولكي يسمع الكل كان على الراهب الكاهن أن يعطي صوتاً جهورياً قوياً.

وجَّه الكاهن إلى لاريسَّا Larissa الأسئلة التقليدية التي اعتاد الكهنة الروس أن يلقوها على مَن يأتون إليهم للإعتراف:

— هل سبق لكِ أن اشتغلتِ بالسحر؟ وكان هذا أول أسئلته، نطقه بصوت عالٍ (تسود في روسيا أنواع متباينة من السحر: لقلة انتشار التعليم المسيحي، والجهل بالإنجيل).

— نعم، اشتغلتُ بالسحر. كانت هذه إجابة صديقتي التي عملت بعض جلسات لمناجاة الأرواح كأهل عصرنا قبل أن تهتدي للإيمان.

— هل سرقتِ؟

— نعم سرقتُ. أجابت لاريسَّا متذكرةً أنها في طفولتها الواعية خبأت عن عمتها «علبة حلوى» لتأخذها لنفسها.

— هل قتلتِ؟ كان هذا السؤال الثالث مرعباً.

أجابت لاريسَّا وهي مضطربة جداً:

— نعم قتلت. الإجهاض في أيامنا هذه، هو الضربة الرهيبة التي بُليت بها المرأة الروسية المثقلة بأعباء الحياة.

أما النساء المُسنَّات الواقفات في كل جهة من الكنيسة، فكُنَّ ينغضن رؤوسهن اندهاشاً من سماعهن لمثل هذه الإعترافات الغريبة التي لا يمكن أن تكون لمؤمنين يترددون على الأديرة أو الكنائس؛ بل حتى الراهب الكاهن الشيخ أظهر امتعاضاً شديداً وقال: «يكفي يا ابنتي! يمكنك أن تجاهدي حتى لا تقعي في هذه الجرائم مرة أخرى».

وقد حدث ذلك لأن هذا الراهب الكاهن كان لأول مرة يتعامل مع مهتدٍ جديد، ولم يكن له أي معرفة سابقة بمثل هذا المستوى من الناس.

كل هذا جرى منذ عشر سنوات، عندما كان التطور أو ما يسمى اليوم بالنهضة الدينية الروسية، في بداية عهدها أوائل السبعينات. ولكن في خلال هذه السنوات قد أعدَّ الرب لروسيا رعاة قد أقدموا بجسارة على تكريس حياتهم لخدمة الشبيبة. وهؤلاء إذ تزودوا بالثقافة الضرورية وبالقوة الروحية اللازمة لم يكتفوا بأن يجحدوا بالقول نمط الحياة الإلحادية في بلادنا؛ بل بالفعل أيضاً استطاعوا أن يُنشئوا لهم عالماً خاصاً له كيان حقيقي واقعي يُشع البهجة ويزدان بالبر. إنهم يجعلون الأرض تتجلى بقوة الإيمان والمحبة.

بعض الكهنة الروس يفرحون الآن من عمق كيانهم لأن «الحجارة تكلمت»، ولأن أولاد الملحدين يترددون اليوم على الكنيسة.

كثيرون يحجمون على أن يحملوا الصليب، لكي يأخذوا على عاتقهم مسئولية الإرشاد الروحي لهذه الطليعة من الشبيبة المهتدين حديثاً إلى الإيمان، ولكن مع هذا هناك عشرات الرعاة الذين تكرسوا خصيصاً لهؤلاء المؤمنين الجدد. لقد أضحوا مدبرينا الروحيين الذين يتميزون بالمحبة الأبوية والحكمة السديدة. وعندنا في روسيا، فإن الإعتراف والتدبير (أي الإرشاد) الروحي لا ينفصلان أبداً؛ لذا كان آباء إعترافنا هم مرشدونا الروحيون في نفس الوقت.

إن عمل الروح القدس يعلن عن نفسه بوضوح، وبالأخص على أيدي الكهنة البسطاء، وأحياناً الشباب منهم، الذين قد صاروا لنا مرشدين وآباء روحيين يقودوننا في طريق الحق بكل أمانةٍ وإخلاص.

كان الأب الروحي الذي أرشَدَنا الربُّ إليه يعمل مع كلِّ واحدٍ منا بأسلوب يختلف عن الآخر. كان يحس بسر كل شخصية ويعرف أعماقها وقصد الله من جهتها.

كثيرون من آباء الإعتراف عندنا من الكهنة القرويين البسطاء، النصف أُميين، إلاَّ أنهم يقدرون أن يروا داخل الإنسان، لأنهم يقتنون موهبة قوة التمييز (أي البصيرة الروحية) على الوجه الأكمل.

يقيناً، إن الكهنة الروس قد أحسوا بحاجة العصر، ومنهم مَن بلغ القمة في بذل حياته للعمل الكنسي. والبعض منهم قد وُجِدوا جديرين على وجهٍ فائق أن يستمعوا بصبر لإعترافات شبابنا المقبل من الإلحاد إلى الإيمان مثقلاً بخطايا مريعة، وكأنهم مُرْسلون من الله خصيصاً ليصطادوا بشباكهم المُحْكمة هؤلاء الآتين من عالم مُنكر لكل دين.

ولكن الكنيسة لم تفضِّل أبداً يوماً ما أن تختار الطريق السهل. فإني لم أسمع قط أن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية تساهلت في المتطلبات الأخلاقية بحجة أننا نحيا في عصر إعادة النظر في القيم، وانتشار الإباحية والتفكك الأُسري... إلخ. كان من الصعوبة على الداخلين في الإيمان حديثاً مثلنا أن يقبلوا بالكامل هذه الحياة الجديدة: فنحن لم نتعود، لا على الصوم، ولا على الصلاة المنتظمة، ولا على التقشف الدائم في كل شيء الذي لا بدَّ منه مهما كانت صعوباته في بادىء الأمر، ولا على أن يلوم الإنسان نفسه هو أولاً وليس الآخرين. نحن بدأنا أن نتعلم كل هذا تدريجياً. وكنا نحس أننا مُعَانون فيها كلها بنعمة الله وبصلوات الكنيسة. ومن جهة أخرى كنا نُقدِّر بإجلال كبير أن الكنيسة كانت تعلِّم كل الحقائق المعطاة لها من الله مرة واحدة، وأن وصايا الله لا تخضع للتغيرات الباطلة التي تطرأ مع كل عصر. أصبح يحلو في

أعيننا جداً مبدأ الكرازة المسيحية القائل: «عِشْ من أجل الأمور التي من أجلها اشتهى أُناس أن يموتوا، ونالوا ما اشتهوا».

لقد تعلمنا ألاَّ نشفق على أنفسنا مقابل خطايانا نحن، وأن نستأصل نجاساتنا من جذورها. نحن الذين كنَّا سابقاً نستمرىء كل إثم ونعتبره أمراً طبيعياً، ونحاول أن نبرر أنفسنا بشدة: كيف يُعتبر خطية أن نمارس الحب (الجسدي) بأية صورة كانت؟ ولكن المسيحية، حتى في القرن العشرين، التي رأت وأحست بكل شيء تدعو إلى حرية الإرادة وإلى الكمال: «كونوا كاملين لأن أباكم السماوي هو كامل». وهذا ليس للروح فقط، ولكن للجسد أيضاً، الذي كلُّ نسمة وكل حركة له ينبغي أن تتقدَّس لله وتشارك في هذا الكمال.

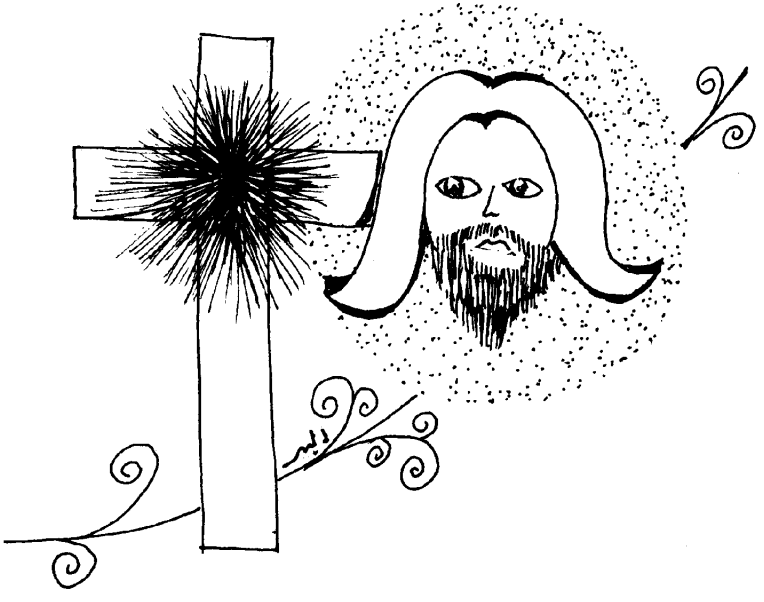

سياحة يوم في دَيْرٍ

■◆■◆■

بعد أن تجلّت لي معرفة الله معرفة قريبة من خلال «الصلاة الربانيّة»، بات من المُحال عليَّ أن أجد التعبيرات البشرية الملائمة التي تليق بالله — جلَّ جلاله. ولكن عندما حضرتُ الكنيسة لأول مرة في حياتي، أدركت تماماً أن الليتورچية (أي صلاة القداس) هي بحق أقصى ما يمكن أن تقدمه البشرية لله، لأن بديهة الإنسان وإلهامَهُ وجدت فيها الأسلوب الجدير بأن يجتذب إلينا الله. وحتى دون أن أفهم كلمة واحدة من الصلوات التي كانت تُتلى باللغة السلافونية القديمة، أحسست أن الهيكل المقدس كان يحفل بطاقات إلهية فائقة. وهكذا إذ قادني الرب إليه بمحض نعمته، قررت في الحال أن أكرس له كل حياتي. وإذ علمت أنه ما زالت توجد أديرة عامرة في روسيا، استدللت على أحدها لكي أتوجه إليه.

إنه دير متوارٍ وسط أحراش غابة ريجا **Riga**، وهناك تناولت من الأسرار المقدسة، وكان ذلك لأول مرة ومنذ بدء تعرُّفي على الحياة الكنسية. كنيستان صغيرتان من الخشب في وسط غابة عطرة من الصنوبر، كانتا تجتذبان إليهما ما ينيف عن ألفٍ من الأنفس. فكان الناس الآتون من أنحاء بعيدة يملأون الساحة الكبيرة التي أمام الدير، حتى إذا ما أقبل الليل واضطروا للمبيت هناك، كان كل واحدٍ منهم ينقب حفرة على قدر مِرْقَده تحت أشجار الصنوبر. هذا الشعب الحاشد على اختلاف طباعه وطبقاته وأعماره، وإذ كانت تغمره فرحة عارمة، كانت تسري فيَّ

أنا أيضاً نفس هذه الفرحة؛ كان يظل واقفاً طيلة الخمس الساعات التي كان يستغرقها القداس الإلهي. وبعدها لا يقدر أن يكفّ عن التسبيح والإنشاد؛ بل كان يواصل ترنُّمه في الغابة معبِّراً عن فرحه الشديد، رافضاً أن يجلس لتناول الطعام. هذه الصلاة المتصلة لم تكن لتتوقف إلاَّ عند طلب الأب الروحي الذي كان يدعو السائحين لأن يستريحوا قليلاً ليتناولوا شيئاً من الطعام. كانت الصلاة والتسابيح تخرج من أفواههم بسهولة وبتلقائية عجيبة دونما أي تكلُّف أو جهد، وكانت نشوتها تستولي عليهم إلى حد نسيان النفس. ولكن في الدير لم نكن فقط نتذوق حلاوة الفردوس؛ بل كنَّا أيضاً نَسْبُر أعماق النفس.

قد أمكنني أن أختبر في الدير الكثير من المتضادات المذهلة، فبعد أن عشنا حياة الشك في كل دين، وعدم الثقة في كل أحد، ورفض الخضوع لأية سلطة؛ رأينا أنفسنا نهرع إلى الكنيسة، ونلتحم فيها بسهولة، ونقبل أن نرتبط بكل عقائدها الجوهرية، ونتفهم جيداً وجوب الطاعة لها. هكذا كان إيماننا نحن الحديثي الإيمان؛ بل وهكذا كانت ثقتنا الوطيدة للغاية في كل ما تمليه علينا الحياة الجديدة. وحتى إذا ما ظلَّ شيءٌ ما غير مفهوم لدينا إلاَّ أن قبولنا للكنيسة ككلٍّ كان مطلقاً ودون أي استثناء، لأن روح الطفولة قد بعث فينا بنعمة الخلاص الآتي لنا من حنان محبة الآب الفائقة. وهنا، ولأول مرة يدخل المثقفون المستنيرون في علاقة مع الإيمان الشعبي البسيط، ويلتحم عِلْم اللاهوت القائم على البراهين المُستنِدة على الوحي، بالخبرة الروحية القائمة على التجربة الشخصية.

يميل بعض المراقبين لأحوال الكنيسة الروسية في الغرب؛ بل وبعض الروس المهاجرين والقاطنين في بلاد المهجر، إلى أن يبالغوا في وصف مسالمة الكنيسة الروسية للدولة بأنها نوع من الخنوع للسلطة، ويرتأون في أغلب الأحيان أنه إذا اعتُرف بأساقفة الكنيسة من جانب الدولة رسمياً فإن هذا معناه أنهم لم يعودوا بعد

إكليروسيين حقيقيين. مثل هذه الرؤية للأمور تدلُّ على الجهل الكلّي بالوضع في روسيا. فأنا لم أصادف قط كاهناً غير أمين لعقيدته وكنيسته، ونحن حينما نذهب إلى الكنيسة نذهب هناك لنتقابل مع الله وجهاً لوجه، وحيث نواجه أيضاً حقيقة أنفسنا ذاتها؛ وليس لكي ندين الأساقفة والكهنة. والكنيسة حتى إذا ما جُرِّدت من السيادة الخارجية، فإنها تبقى بسلطانها السري الروحي وبسلطان الروحانية الكائنة في طقوسها وأسرارها. والإنسان الأرثوذكسي العادي في علاقته بالكنيسة تكون صلته المباشرة مع الكهنة أكثر من الأساقفة. والكهنة هم بحق آباؤنا الروحيون؛ بل أقول أيضاً إنهم يحملون لنا في قلوبهم أمومة روحية صادقة. وهم بحق رعاتنا الذين لا تنقص رسالتهم شيئاً عن تلك التي للأساقفة من جهة تحمُّل المسئولية وبذل الذات.

الشعب يرى في الكهنة لا مجرد أشخاص عاديين قابلين للفناء؛ بل كيانات روحية وُضِعَ على عاتقها عبء خدمة جسد المسيح الذي هو الكنيسة.

كل ما هو روحي في روسيا اليوم قد أبان عن عمق حقيقته، تلك الحقيقة التي من خلالها، بدأ ينفتح لنا ملكوت السموات منذ الآن. فقد تأكَّد لنا بوضوح تام أن الكنيسة وحدها هي التي وقفت راسخة أمام أبواب الجحيم (مت١٦: ١٨)، بينما كل المجالات الأخرى للحياة قد ابتُلِعت تماماً.

لم يَبْقَ في روسيا في وقتنا الحالي أكثر من سبعة عشر ديراً، لأن غالبية الأديرة القديمة قد آل بعد الحرب للجمهوريات المُلْحَقة: إستونيا، ليتونيا، أوكرانيا، ليتوانيا؛ حيث لم تُغْلَق في تلك الأرجاء.

قد تعودنا أن نذهب إلى الدير لقضاء أسبوع للصلاة في كنيسته صباحاً، وقضاء الليل في الساحة أمام الدير. وكان قضاء ثلاثة أيام فقط كافياً بأن ينسينا التراخي الذي كُنَّا نعيش فيه، ويجعلنا نتنسم ملء روح الحياة الحقيقية، لنعود مرة أخرى

نجاهد ببسالة و بقوى جديدة.

هذه هي انطباعاتي بعد قضاء يوم بالدير. وإذ أترك في حديثي جانباً ما هو جوهري هناك أي القدّاسات والصلوات الديرية، هذه الأركان السرِّية العميقة، فإني سأتكلم عنها مرة أخرى بمعونة الله. أذكر الآن لمحات عن بعض الشخصيات التي تقابلنا معها في الدير، عندما كان يوم صيف حار. يومها صعدنا إلى بسكوف في سيارة ركاب كبرى متجهة إلى بيتخوري **Petchory** ، حيث هناك دير للرهبان.

مكانة الآباء الروحيين عند الشعب:

الآباء الروحيون هم منارة الدير. وفي كل روسيا كانوا معروفين ببصيرتهم الروحية، وحكمتهم، وقداستهم. فقد كان الناس يأتونهم من كازاخستان وسيبيريا وشمال أوكرانيا فقط لكي ينالوا بركتهم، أو حتى لمجرد رؤيتهم. كان من الصعوبة بمكان الحصول على موعد مع الآباء الروحيين، نظراً للأعداد الكبيرة التي كانت ترغب في مقابلتهم، و بسبب الجمع الغفير الذي كان يحيط بأيٍّ منهم حالما يتراءى أمامهم.

قبل اهتدائي إلى الإيمان، كنت قد سمعت من خلال أصدقائي المنتمين لفلسفة «اليوجا» عن: «الحكيمَيْن الروحيَّيْن» العظيمَيْن كما كانوا يدعون الأبوين چاكوب وأنطون، هذين الشيخين الروحيين الشهيرين لدير بيتخوري **Petchory** . فالآباء الروحيون يتعاملون مع كل الناس، حتى مع اليوجيين، وهم على وعي تام بالأحوال التي تجري الآن في روسيا. يعلمون أن المسير نحو الله قد بات أكثر صعوبة عمَّا قبل. واليوجا في الواقع كانت للكثيرين منَّا الخطوة الأولى نحو المسيح.

كان الأب تيخون هو أول شيخ روحي قَدِرتُ أن أتقابل معه. فبعد خدمة صلاة طويلة في القداس الإلهي، في كنيسة صغيرة من الخشب، و بعد تناول وجبة بسيطة في

«كانتين» الدير، وكان ديراً للراهبات بالقرب من ريجا، توافد الشعب نحو البيت المتواضع الخاص بالأرشيمندريت تيخون.

قد سمعت عنه قبل أن أراه، أنه عندما كان صبياً صغيراً غَرِق، حتى بلغ إلى العمق، وإذ وضع يديه على صدره في شكل صليب، واصل الصلاة. أما النهر الذي كان فائراً وفائضاً بسبب الذوبان الطبيعي للثلوج، فقد رفعه إلى السطح وألقاه على الشاطىء، وهكذا نجا بمعجزة. وككل الآباء الروحيين المشهورين تقريباً، قضى الأب تيخون بعد ذلك أعواماً عديدة في معسكرات الإعتقال والسجون (يُروى أنها بلغت خمسة وعشرين عاماً).

يحكى عن الأب تيخون أنه عندما كان في معسكر الإعتقال، وبالرغم من الأسلوب العنيف الذي كان يُعامَل به والذي لا رحمة فيه، إلاَّ أنه كان يجد بغضاً من الوقت ليحتفل بالقداس الإلهي يومياً. كان ينهض مبكراً ساعة قبل الآخرين، وكان يُقدِّس وحده بصوت خافت وبغاية الهدوء. أما في المساء فكان يتفرغ لخدمة المعتقلين الآخرين في المعسكر — وكان هؤلاء من المجرمين مرتكبي الجرائم ضد القانون العام — إلاَّ أنه لم يكن قط يعنِّفهم أو يعظهم ليستميلهم إلى الإيمان، ولا حتى كان يلمِّح لهم بالكلام لا من بعيد ولا من قريب. ولكن الأمر العجيب الذي حدث — حسب رواية راهبات الدير — أن غالبية مَن كانوا مع الأب تيخون في المعسكر خرجوا من المعتقل مؤمنين في غاية العمق.

حشد كبير للغاية من المنتظرين المقابلة كان يحيط بالمنسك الذي للأب تيخون. وهؤلاء لم يكونوا فقط من الناس البسطاء والعامة، ولكن كان هناك أيضاً بعض الرسَّامين المشهورين الآتين من موسكو، وآخرون من «الهيبز» التائبين الذين علَّقوا الصلبان الكبيرة على صدورهم. لقد سنحت لي الفرصة وقابلني الشيخ قبل قيامه

بخدمة المساء. وإذ كنت آتية إلى الإيمان المسيحي حديثاً كان عندي أسئلة كثيرة أريد ردوداً عليها، لأني ما كنت أعرفه عن المسيحية كان طفيفاً جداً. ولكن لأني لم أُرِدْ في الوقت نفسه أن أُعوِّق الشيخ طويلاً عن القيام بمهامه، اخترت واحداً من الأسئلة المتعلقة بالأمور التي كانت تُقلقني فقلت له:

— يا أبي: في العظة التي قد سمعتها منك كنت تتكلم طول الوقت عن مخافة الله. فلماذا نخاف، والكون كلُّه ممتلىء من مجد الله؟ ألَمْ يَقُل الرب نفسه: «إن رئيس هذا العالم قد طُرِح خارجاً»؟ أوَ لم نتخلص من الشر نهائياً؟

أما إجابة الأب تيخون فقد أدهشتني بشدة بقوله لي:

— «أنتِ تفكرين مثل آدم في الفردوس. فأنتِ لم تصيري بعد مسيحية حقيقية، لأنك لم تَعِي بعد خلقتك الجديدة. لأن المسيحي الحقيقي هو مَن يتبع طريق الصليب، والفرح الروحي اليقيني هو الذي يأتي من وراء حمل صليب المسيح».

وفي الواقع، وبعد نشوة فرح العماد ودخولي الإيمان سريعاً، دخلت في حقيقة المِحن غير المُرْتقبة، وبدأت حينئذٍ أن أقبل الألم بلا تذمر؛ بل وبترحيب كما سبق وقبلت الفرح بفيض من الرب. لقد صار لي غاية في الوضوح كلام الإنجيل:

«نيري هَيِّن وحملي خفيف.» (مت ١١: ٣٠)

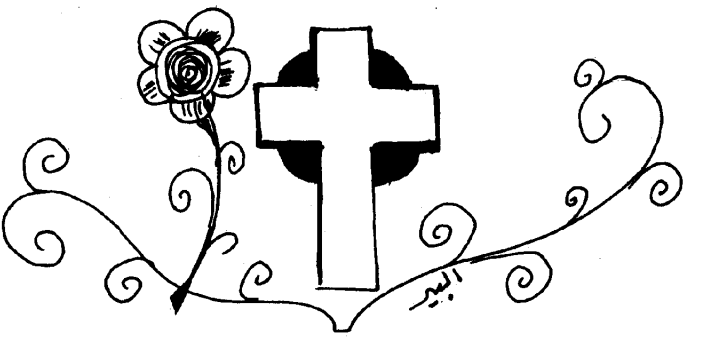

الأب چاكوب

●●●

الآباء الشيوخ الروحيون هم أطباء نفوس حقيقيون. إنهم لا ينطقون أبداً بأقوال عاطفية باطلة لا طائل منها، إنما هم يعطون الدواء الذي قد يكون في أغلب الأحيان مُرًّا علقماً. ولكنه دائماً ذو فاعلية ناجعة. ما من أحدٍ ينهض من أمام أبٍ روحي وهو في حالة يأس أو في أي نوع من الأسى؛ بل يغادر المرء المكان عادةً وهو منتعش الروح، متجدد القوة، متألق الوجه بالفرح.

الآباء الروحيون بصفة عامة ليست فقط حكمتهم العالية هي التي تعمل وحدها؛ بل أيضاً فاعلية صلواتهم وقوة محبتهم الأبوية الواضحة التي يقدر أن يدركها مباشرة، وفي الحال، كل مَن يتعامل معهم، كذلك الثقة التي لا حدَّ لها التي يحملها الشعب من جهتهم. ألوفٌ ألوفٍ من الناس في روسيا يعيشون في ذكرى حديثهم مع أبٍ روحي عاملين بمشوراته التي أعطاهم إياها. الأب الروحي هو صورة منعكسة لحب الله نحو البشر. بعد مقابلته ولو مرة واحدة، يستحيل على الإنسان أن يحيا كما كان من قبل؛ بل من هذه اللحظة فصاعداً ستتجدد قيمة كل الحياة بعد التلامس مع هذا البهاء الذي لنور النعمة. القداسة عند الآباء الروحيين، هي دعوة إلهية وضرورة إلزامية.

* * *

قالت لي صديقة، في إحدى المرات: «إذا كان الأب چاكوب هكذا؛ فكيف يكون المسيح»؟!

كان فوجٌ كبير من الناس يلاحق الأب چاكوب الذي يشعُّ وجهه بالمحبة، حيثما تراءى. كان الناس يحسُّون بطريقة مقررة وثابتة بالنعمة الحالَّة فيه والمنبعثة منه، وكان كثيرون منهم يحاولون جاهدين أن يلمسوا ثوب الشيخ، معتقدين أن قوة روحية كانت تسري إليهم منه.

أما الشيوخ الروحيون (أمثال الأب چاكوب) فكانوا يصارعون ضد هذا التأليه (التكريم الزائد) لشخصهم؛ وكانت سماتهم الأساسية هي الاتضاع الشديد. كان الأب چاكوب يقول دائماً عن نفسه: «إنني حصيرة من قش تحت أرجل الناس». وأيضاً: «أحاول دائماً أن أرتفع وأجلس على المِقْعَد؛ ولكن أجد نفسي تحته، فأصعد عليه مرة أخرى من جديد، ولا أملُّ»!

الأب چاكوب كان منبسط الروح جداً. وكنت مع آخرين من المثقفين المؤمنين قد تعودنا سابقاً (قبل دخولنا للإيمان)، أن نكون لا مبالين وألا نستغرب أبداً لأي شيء كان، ومع هذا كنا ننذهل للغاية من اتساع وقوة بصيرة الشيخ الذي لم يكن في الوقت نفسه تابعاً لمذهب المتحررين، ولا كان من اللامبالين.

إتساع الفهم هذا والجرأة في حرية التعبير، كان من الواضح أنها وليدا السكون الداخلي، وقوة الإيمان الواثق في الله.

كان هذا الأب في غاية من الحنان. أذكر مرة ما حدث معه بعد انتهاء خدمة القداس، وكنا جميعاً في انتظاره في صف طويل داخل الكنيسة لنأخذ بركته ونُقبِّل يده، وإذا بشخص — أعرفه جيداً اسمه نيكولاس — يدخل الكنيسة، وكان قد وصل لتوه من بيتخوري Petchory بالأتوبيس. كنت على دراية بحياته الصعبة. فقد

كان آتياً من عالمٍ ممتلىء مآسٍ لا حلَّ لها، سواء في أسرته أو في العمل. وكان وجه الشاب ينمُّ عمَّا يعانيه من متاعب؛ بل وكان يعبِّر عن إحساس بالفاجعة وبالضياع. وشتَّان بين هذا الوجه، وبين الوجوه الأخرى التي كان عليها مِسْحة من الهدوء والسلام بعد خدمة صلاة طويلة.

وقف نيكولاس متردداً ومتحيراً، وهو يتخذ مكانه آخر الصف الطويل ليطلب البركة كالآخرين أيضاً، وإذ بالشيخ يلمحه في الحال، فيتقدم هو بنفسه إليه ويأخذه بين ذراعيه (بالرغم من أنها كانت هذه هي المرة الأولى التي يراه فيها)، ويعانقه بحرارة شديدة مُقبِّلاً إياه على الجبين، وعلى كلا الوجنتين، وعلى العُنُق. الأم وحدها هي التي يمكنها أن تعامل ابنها هكذا بحب رقيق عندما تراه متألماً! سأل الشيخ نيكولاس مستفسراً عن الموضع الذي كان آتياً منه، وعن الوقت الذي يشاء أن يجيء فيه للاعتراف.

كلما أتذكر هذا المشهد يتهيأ لي أن قلبي غير المتربي قد قُدَّ من حجر.

بعدئذٍ تيسر لي أن أختبر بنفسي قوة محبة المسيح. لقد اكتسبت في حديثي معه إحساس المصالحة التي لا حدود لها، مع العالم كله، مع الناس، ومع الكائنات الحية بأسرها؛ بل ومع الخليقة المادية أيًّا كانت.

إنه ليس عبثاً أن يسمَّى الروح القدس «الروح المُعزِّي». إنه الروح القدس بعينه أكيداً هو الذي كان معنا في تلك الآونة.

بدأ الشيخ يكلمني مباشرة وبشدة عن أخطائي: عن عدم احتمالي، ونقص نضوجي الروحي؛ ولكنني خرجت من عنده في غاية العزاء كما لو أنني كنت في الفردوس. أما هو فلم يُخْفِ عني أيضاً قصده في أن يعزِّيني. فغالباً ما قال لي من خلال حديثه: «فها ما يمكنني أن أعزِّيك به أيضاً». كانت محبته ذات وزن روحي

عالٍ، ولكنها في الوقت نفسه رقيقة وحانية جداً، حتى إنني لم أكن أخاف أن أقول له كل شيء بمنتهى الأمانة وصفاء القلب.

كلُّ مَن كان يتقابل معه عن قرب، كان يحس بروحه النارية المضطرمة بالحب الإلهي والمتجددة دائماً بالروح القدس، وكانت هذه القوة الإلهية عينها تسري في كل مستمعيه الذين كانوا لا يطيقون إلاَّ أن يُدَوُّوا بها في كل مكان.

الأب چاكوب لم يكن يعرف الردود العامة. فكانت إجابته لكل واحد غير الآخر، وكانت إجابات نافعة وحاسمة. وقد كان يقول: «إن لكل إنسان طريقه نحو الله. فيجب أن يُعْطَى كلٌّ منهم بحسب ما يتناسب مع قامته الروحية».

أذكر أني رأيته عندما كان يتحدث مع بعض الآنسات اللاتى كُنَّ يطلبن بركته للتوفيق بالزواج. ومسألة الزواج والطلاق باتت عندنا في زماننا العصيب هذا واحدة من أفدح المآسي. وأصبح الزواج المُوفَّق من الندرة بمكان. بل إن ما يقرب من نصف حالات الزواج في بلادنا كانت تنتهي بالطلاق. لهذا السبب كان الآباء الروحيون لا يمنحون بركتهم (أي دعاءهم) بسهولة من أجل الزواج.

طلبت آنسة من الأب چاكوب أن يدعو لها بأن تجد لها شريك حياة. فألقى عليها هذا السؤال الآتى:

— «أتقدرين أن تنجبي قديساً؟ إذا قدرتِ على هذا تزوجي، وإلاَّ فلن أدعو لكِ بالزواج».

وقال لأخرى:

— «أنتِ إنسانة مثقفة، والمعرفة عندك أمرٌ أساسي، بينما الزواج يتطلب كثيراً من التضحيات. فهل أنتِ مستعدة أن تضحي بانشغالاتك العلمية لتكرسي الجانب

الأكبر من وقتك من أجل أمور تبعث لكِ السأم مثل: التدبير المنزلي، والركض والسباق في الشوارع للحصول على ضروريات الحياة، ثم الغسيل والتنظيف؟ فإذا كان سيكون لكِ أطفال فلا بدَّ بالضرورة أن تقومي بهذه التضحية».

وهكذا كان يكلِّم الشيخ كل مَن يأتي إليه بطريقة مغايرة، الواحد عن الآخر.

فللداخلين للإيمان حديثاً مثلنا كان الأب چاكوب يحب أن يقول: «أعدُّوا أنفسكم لمسيرة طويلة، ولا تستعجلوا».

ولكن في الوقت نفسه كان حريصاً بشدة على أن يعمل ما وسعه الجهد على النمو (السويّ)، والتقدم الروحي المطرد لأبنائه الروحيين الذين طالما كانوا يترددون عليه.

للأديبة والفيلسوفة الروسية المعاصرة تاتيانا جوريتشيفا Tatiana Goritchéva، التي وُلدت عام ١٩٤٧، في لينينجراد بروسيا. وقد صارت فيما بعد رائدة في قيادة حركات الشبيبة الشيوعية، وذات مكانة هامة فيها. ثم اهتدت إلى المسيحية بقوة غامرة، وبحماس شديد لكل ما هو روحي بحسب الإنجيل والتقليد الكنسي الحي. ثم أسست مع صديقات لها حركة النهضة النسائية المسماة: Maria، التي كان مبدأها الأساسي أن تضع كل نشاطاتها تحت رعاية والدة الإله متخذين منها مثالاً (في تسليم حياتها كلية لله). وإذ استُبْعِدت تاتيانا جوريتشيفا من روسيا بسبب مجاهرتها بخبراتها الدينية بعد قبولها المسيحية أقامت في فرنسا وما زالت.

وهي تبين في هذا الكتاب - من خلال خبرتها الشخصية - كيف أن الطبقة المثقفة الروسية (من فلاسفة وأدباء وفنانين) تتّجه اليوم إلى المسيحية كحلٍّ نهائي يعيد للحياة اليائسة معناها ويسمو بالإنسان فوق الكُفر واللامعقول (ويجعله يمسك بالحياة الأبدية والحق ذاته). إن تاتيانا جوريتشيفا مثل كثيرين آخرين في الإتحاد السوفيتي تستعيد فهم التعبيرات والرموز وكل ما يجري من طقوس في الكنيسة الأُرثوذكسية بانذهال وتعجُّب شديدين. والتقليد عندها كنز لا يُقدَّر بثمن والارتباط بالأب الروحي ذو أهمية حيوية أساسية.

الثمن جنيهان